# رحلة ابن جبير إلى الحرمين الشريفين

الدكتور خالقداد ملک

استاذ المساعد بالقسم العربی جامعة بنجاب، لاهور

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدالمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمابعد، فإننا لن نبالغ إذا قلنا إنّ أدبَ الرحلاتِ إلى الحرمين الشريفين (زادهما اللّٰه شرفاً وكرامةً) هومن أهم فنون الأدب العربی قدراً و أكبرها تاثيراً فی نفوس المسلمين، وذلك لِسَبَبَين بسيطين أحدهما أن أرض الحجاز المقدسة هی مركزُ الوحدة للأمة الإسلامية ومنبع البركات والتحليات الإلهية، ولايزال قلب كل مسلم، مهماتناء ت الديار وتباعدت البلاد، معلقاً بها ومولعاً بذكرها فی جميع اونة حياته، فهذا ماجعل أُدباءَ الأمة الإسلامية و شُعراءَ ها يُدوّنون رحلاتهم إلى الحرمين الشريفين ويسجلون فيها مشاهداتهم وملاخطاتهم شعراً و نثراً و أمالسبب الثانی فهوأنّ هذه الرحلات خيرُ ردٍّ على التُّهمة التی طالما أُتُّهِمَ بها الأدب العربی و نقصد بهاتهمةَ قصورِه فی فن القصة و نقول من غير شكٍّ أنّ من يتهمونه بهذه التُّهمةَ لم يقرأوا قطّ ما نُقدِمُه كُتب الرحلاتِ هذه من أساليب فنية للقصة العربية.

وعنی كثير من الرَّحالّين و على رأسهم البتانونی بوصف الرحلة إلى الحرمين الشريفين و كتابه "الرحلة الحجارية" ذائع مشهور وفيه كثير من المُصوّرات، وهو غَنِیٌّ" بالمعلومات عن مناسك الحج، ولمحمد حسين هيكل "

من وحی النبوة" وهی رحلة فی البلاد الحجازية' كتبها بأسلوبه البليغ' واشتهر الأندلسيون بكثر ماكتبوا من رحلاتهم إلى المشرق مثل رحلة أبى القاسم التجيبى فى القرن الهجرى الخامس(۱) ورحلة ابن الرُشيد السبتى فى القرن الهجرى الثامن (۲) وقدعنوا فى رحلاتهم بأخبار العلماء والأدباء والأراضى المقدسة فى كل قطر شاهدوه.

ووراء من سمّيناهم كثيرون يكتبون عن الحجاز وبواديها وديارها ذلك لحاجة دينية إذكان الحج إلى مكة المكرمة فريضةً على كل مسلم' وكان المسلمتون يتحشّمون راضين كلَّ شقةٍ فى سبيل أداء هذه الفريضةِ وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة' ويصف كثير من هؤلاء الحاج طريقهمَ إلى الأماكن المقدسة فى كتب أوفى رحلاتٍ مختلفة.

ومن أشهر ماكتب فى ذلك فى العصور الوسطى' رحلة ابن جبير الأندلسى إلى المشرق لزيارة الحرمين الشريفين' وقدسمّاها "بتذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" وهى معروفة "برحلة ابن جبير" (۳) وقداخترنا دراستها لمقالنا هذا.

## حياة ابن جبير وتجواله فى البلاد

هوأبوالحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى' الأندلسى' وأصل أسرته من بلدة شاطبة (Jativa) ووُلد فى بلنسية (Valence)سنة ۵۴۰/۱۱۴۵م و عنى أبوه بتربيته عناية خاصة' فدرس العلوم الدينية واللغوية' ولم يلبث أن يتقظت فيه مواهبه الأدبية فأخذ فى قرض الشعر. (٤)

وانتشرصيته ولمع اسمه فى بلاد الأندلس' فألحقه حاكم غرناطة

أبوعثمان سعيد بن عبدالمؤمن بكتاب ديوانه، و خف على نفسه، وكان يحضره مجلس شرابه، وكان ابن جبير ينقبض عن الشُّرب، فألح عليه الحاكم أن يشرب معه و أقسم عليه ليشربنَّ سبعاً، وجاراه، فشرب سبعَ كؤس وسُرَّ الحاكم، وملأله الكأسَ بالدنانير سبعَ مرّاتٍ، و صبَّها في حجره، فأصرّ في نفسه أن يُكفِّرعن سيئته، وأن يُنفق هذه الدنا نير في الحّج إلى بيت اللّٰه الحرام، ولم يلبث أن أعلن عزمه لأبي عثمان، وأنه حلف بأيمان لامحيص له من البرّبها، فأعانه على ما ابتغاه. (٥)

وكان ابن جبير الأندلسي من علماء الأندلس في الفقه والحديث، وكانت له مشاركةٌ في الآداب العربية والاسلامية وقد وَصَفه لسان الدين ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة بأخبار غرناطة" بأنه: كانَ أديباً بارعاً، شاعراً مُجيدا، سريَّ النفس، كريم الأخلاق" (٦) ولكنّ شهرتَه لم تَقُم إلاّعلى كتابه المعروف "برحلة ابن جبير" الذي وضعه بعد أن قام برحلات ثلاث أهمها رحلة استغرقت أكثر من ثلاث سنوات.

وفَصَلَ ابن جبير من غرناطة في الثامن من شوال سنة ٥٧٨ھ/الثالث من فبرائرسنة ١١٨٣م، وركب البحرَ في سفينة لبعض أهل جنوة قاصداً إلى الاسكندرية، و نزل بها، ووَلّى وجههَ إلى القاهرة ومنها إلى (قوص) بصعيد مصر فعيذاب حيث اجتاز الحجرالىٰ جُدة واتجه من فوره الىٰ مكة فادىٰ فريضة الحج، وزار المدينةَ المنورة، وظل في الحرمين الشريفين نحوستة أشهر، ثم قصد إلى الكوفة، فبغداد فالموصل ولم يمرّ مروراً عابراً بهذه البلاد، بل كان يمكث بعض الوقت يدرس و يفحص، و انتقل إلى الشام وكان للصليبيين فيها مستعمرات كثيرة، فمر بديارهم، وأخيراً ركب البحرمن عكا عائدًا إلى بلاده على مركب مسيحي، وأرسى المركب بصقلية، فنزل فيها وطاف ببلادها، ثم رحل إلى بلاده، ووصل إليها

فی ۱۵ من المحرم سنة ۵۸۱ھ/۲۵ من ابریل سنة ۱۱۸۵م.

ورحلة ابن جبیر هذه تقصّ ماشاهده فی طریقه إلی حجه وعودته منه، وهی مکتوبة بشکل مذکرات یومیة، فمع کلّ مشهد وکلّ بلدة التاریخ بالیوم والشهر، وقد وصف فی هذه الرحلة کلّ مامرّبه من مُدنٍ وماشاهد من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع و الأ حوال السیاسیة والأخلاقیة، وعنی عنایة خاصة بوصف النواحی الدینیة والمساجد والمشاهد المقدسة وقبور الصحابة ومناسك الحج ومجالس الوعظ والبیمارساتانات والمستشفیات، ووَصَفَ وکذلك الکنائس والمعابد والحصون والعواصف البحریة وماکابده المسافرون من ضیق وخوف و ذعر، وذَکَرَ الحروب التی کانت دائرة فی الشرق بین الصلیبیین والمسلمین.

والجدیر بالذکرهنا أن ابن جبیر کان قدر رحل إلی المشرق بعد هذه الرحلة مرتین، فانه قد سمع بفتح صلاح الدین الأیوبی لبیت المقدس و استیلائه علیه من أیدی الصلیبیین، فحدثته نفسُه أن یزور هذ الأماکن وعَلَمُ الاسلام یُرفرف علیها، فرحل رحلته الثانیةَ فی سنة ۵۸۵ھ/ ۱۱۸۹م وعاد إلی بلاده فی سنة ۵۸۷ھ/۱۱۹۱م وماتت زوجته فحزن علیها حُزناً شدیداً، ولم یجد عزاء اً عنها إلاّان یحجّ إلی بیت اللّٰه عزوجل، فرحل رحلته الثالثة فی سنة ۶۱۴ھ/۱۲۱۸م و أقام بمکة المکرمة مدة، ثم تحوّل عنها إلی الإسکندریة، وأقام بها یُحدّث ویُؤخَذَ عنه إلی أن لبیّ نداءَ ربّه فی ۹ من شعبان سنة ۶۱۴ھ/۳۰ من نوفمبر سنة ۱۲۱۷م.(۷)

وإن رحلة ابن جبیر هذه مکتوبة بلُغة سهلةٍ بسیطةٍ مُلائمة تماماً لموضوعها، و طریقته فی السرد محبة إلی النفس، وهویصف کلّ مایُشاهده و صفاً

دقیقاً مسهبًا یدلّ علی دقة ملاحظته وسعة اطلاعه و علمه و قدرتك نفسه علی سحیتها خلال الوصف فلم یتکلف فی عبارة ولا فی فکرة، وأدیّ ماداخله من عواطف وأحاسیس إزاء بعض الحوادث والمواقف أداءً صادقاً صریحاً، وکان شدید الإعجاب بالسلطان صلاح الدین الأیوبی، عظیم الإ کبارله، فلاتمرّ سانحة إلّابیّنَ فیها ما کان علیه هٰذاالسطان العظیم من العدل والخلق والکرم (۸) وکذالك کان ابن جبیر قوی العاطفة الدینیه یختتم کل کلام بالدعاء الی اللّٰه تعالیٰ والتوکل علیه جل جلاله وهٰذه العاطفة الصادقةُ دفعته إلی إرسال الأدعیةِ للمدن التی مرّبها، فمنها مایدعو لهاب "حَرَسَها اللّٰه و عَمَرها اللهُ وحَمَاها اللّٰه " أو "أعَادها الله" إذا کانت مما خرج من أیدی المسلمین إلی الصلیبیین، ومنها مایدعوعلیهاب "دَمَّرها اللّٰه" إذاکانت تحت سُلطان الأفرنج.

## رحلته فی الدیارالمصریة

یرکب ابن جبیر البحرَ بإحدی سُفن جنوة و ینزل فی الإسکندریة، فیلقی موظفو المیناء السفینةَ بتفتیش دقیق، ویأخذونَ من راکبیها بعض الضرائب، ولا یتز لونهم منهاإلاّ بعد تَحَرٍّ وثیقٍ، و شکا ابن جبیر من ذلك مُرّالشکوی، ولمااستوثق الموظفون منه ومن صحبه الأندلسیین ترکوهم و شأنهم، فجاس خلال الإسکندریة و أعجب بمبانیها و مناراتها ومدارسها وما رُتّبَ فیها للطلبة والمدرسین من مرافق و منافع، ومایجری علی غُرباء المغاربة من خُبر یومیّ معلوم، ومایَسُود ذلك من أمن ورفاهیة فی المعیشة. (۹)

ثم یأخذ ابن جبیر طریقه إلی القاهرة والفسطاط ویصف المدن المختلفة التی یمربها، ویذهل أمام آثار القاهرة العجیبة ویتحدث عن مشهد الحسین و یصف

القلعة والمارستان والأهرام وأباالهول والجيزة وجزيرة الروضة القائمة بينها وبين الفسطاط' وهويكثر من مدح السلطان صلاح الدين ورعايته لشؤون المصريين ومايزل بقُطره من المغاربة إذيجرى عليهم الأرزاق ويخصهم بعطفه وقدنّوه باهتمامه بالمدارس وما بهامن مناهج التعليم و أشاد بمحوه للضرائب التى كانت تؤخذ فى القاهرة من حُجاّج المغرب ومحوها أيضا من بلاد الحجاز بفضل ما أفاء على هذا القطر من ماله فعوَّضَ الحاكمين هناك أجملَ عِوَضٍ بما أدىّ إليهم.(۱۰)

ويبرح ابن جبير القاهرة فى شهر المحرم من سنة تسع و سبعين و خمس مأمة متوجهاً نحو (قوص) حتى يصل إليها و يجتاز الصحراء الشرقية من (قوص) إلى (عيذاب) على البحر الأحمر واصفاً كلّ مابطريقه من مُدن و آثار وكثرة القوافل الواردة والصادرة من (عيذاب) تحمل توابلَ الهند وخاصةً أحمال الفلفل والقِرفة' ولايزال فى طريقه ووصفه حتى يصل إلى (عيذاب) فهويصفها على هذا النحو:

"هى مدينة على ساحل بحر جُدَّة غير مسوَّرة' أكثر بيوتها الأخصاص' وفيها الآن بناء مستحدث بالحص' وهى من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها و تقلع منها' زائداً إلى مراكب الحاج الصادرة والواردة' وهى فى صحراء لانباتَ فيها' ولايؤكل فيها شئ ألامجلوب' لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مَرْفَق كثير ولاسيمّامع الحجاج' لأن لهم على كل حمل طعام يحملونه ضريبة معلومة..... فيجتمع لهم من ذلك مال كثير فى حملهم إلى جدة وردهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة..... وفى بحريذاب مغاصٌ على اللؤلؤ فى جزائر على مقربة منها ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية' يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر فى الزواريق' و يقيمون فيها الأيام' فيعودون بما

قسمّ اللّٰہ لکل واحدمنهم بحسب حظه من الرزق، والمغاصُ فيها قريب القعرليس ببعيد، ويستخرجونه فی أصداف لها أزواج، كأنها نوع من الحيتان، أشبه شئ بالسلحفاة، فإذا شُقّت ظهرت الشقتان من داخلها كأنها مَحَارتا فضّة، ثم يشقّون عليها،فيجدون فيها الحبّة من الجوهر قدغطّى عليهاالحُم الصدف"(۱۱)

## فی الحرمین الشریفین

ویرکب ابن جبیر البحر إلی جُدّة ویشکومن سوء معاملة العرب للحجاج ومما یأخذون منهم من مکوس، ویشید بالسلطان صلاح الدین لتعهده لأمیرمکة أن یدفع له سنویاً یا یُعوّضه عن مکوس الحجاج، وکان یرسل إلیه ألفی دینار وألفی أردب من القمح ومع ذالِك لایزال ذلك الأمیرورعیته یظلمون الحجاج ویُرهقونهم من أمرهم عُسراً وقدذکر ابن جبیر ذلك قائلاً:

"وأکثر هذه الجهات الحجازیة وسواها فرق و شیع لادین لهم قد تفرقوا علی مذاهب شتی، وهم یعتقدون فی الحاج مالایعتقد فی أهل الذمّة" (۱۲)

ویصف ابن جبیر مدینة جُدّة وصفاً دقیقاً ویقول فیها:

"وجُدّة هذ قریة علی ساحل البحر المذکور (البحرالأحمر) أکثر بیوتها أخصاص (بیوت من طین) وفیها فنادق مبنیة بالحجارة والطین، وفی أعلاهابیوت من الأخصاص کالغرف، ولهاسطوح یستراح فیها باللیل من أذی الحرّ وبهٰذه القریة آثار قدیمة تدل علی أنهاکانت مدینة قدیمة، وأثر سُورها المُحدق بها باق إلی الیوم، وبهاموضع فیه قبة مشیدة عتیقة یُذکر أنه کان منزل حوّاء أمّ البشر، صلی اللّٰه

علیها' عندتوجهها إلى مكة' فبُنى ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته وفضله' والله أعلم بذلك و فيها مسجدمبارك منسوب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه' ومسجد آخر له ساريتان من خشب الآبنوس يُنسب أيضاإليه' رضى الله عنه' ومنهم من يُنسبه إلى هارون الرشيد' رحمه الله' وأكثرسكان هذا البلدة مع مايليها من الصحراء والجبال أشراف عَلوِيّون: حَسَنِيُّون و حُسَنِيُّون و جعفريون' رضى الله عن سلفهم الكريم' وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماداإشفاقاً' ويستخدمون أنفسهم فى كل مهنة من المهن: من إكراء جمال إن كانت لهم' أومبيع لبن أوماء' إلى غير ذلك من تمريلتقطونه أوحَطَب يحتطبونه' وربّما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن' فسبحان المُقدّر لمايشاءُ' ولاشك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا' جعلنا الله فمن يدَين بحبّ أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (۱۳)

ثم يتحوّل ابن جبير إلى مكة المكرمة واصفاً الطريق إليها من جُدّة' ودَخَلها فى اليوم الثالث من شهر ربيع الآخر' وهو الرابع من شهر أغسطس كما يقول' مع طلوع الصباح' والأصوات تصك الآذان بالتلبية فى كل مكان' والألسنة تضج بالدعاء' وتبتهل إلى الله بالثناء ويصف مناسك الحج وصفاً طويلاً' كمايصف المسجد الحرام وصفا مسهبا ولندعه يصف لناذلك بقلمه' يقول:

البيت المكرم له أربعة أركان' وهوقريب من التربيع' وارتفاعه فى الهواء من الصَّفح الذى يقابل باب الصّفا وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليمانى تسع و عشرون ذراعاً' و سائر الجوانب ثمان وعشرون..... وأول أركانه الذى فيه الحجر الأسود' ومنه ابتداء الطواف' وأول مانلقى بعده الركن العراقى' وهوناظرإلى جهة الشمال' ثم الركن الشامى' وهوناظر إلى جهة الغرب' ثم الركن

الیمانی، وھو ناظر إلی جھة الشرق، وعندذلك تُتم شوطاً واحداً.....(١٤)

وباب البیت الکریم فی الصفح الذی بین الرکن العراقی ورکن الحجر الأسود.....والباب الکریم مرتفع عن الأرض بأحدعشر شبراً ونصف، وھو من فضة مذھبة، بدیع الصنعة، رائق الصفة، یستوقف الأبصار حسناً و خشوعاً للمھابة التی کساھا اللّٰہ بیته.....

وداخل البیت الکریم مفروش بالرخام المجزع، وحیطانه رخام کلھا مجزع، قدقام علی ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة الطول، بین کل عمود و عمود أربع خُطاً، وھی علی طول البیت متوسطة فیه..... ودائرة البیت کله من نصفه الأعلی مطلی بالفضة المذھبة لمستحسنة، یخیل للناظر إلیھا أنھا صفیحة ذھب لغلظھا، وھی تحف بالجوانب الأربعة، وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلی.....

وسقف البیت مجللٌ بکساء من الحریر الملون، وظاھر الکعبة کلھا من الجوانب الأربعة مکسوّ بستورالحریر الأخضر، وسدَا ھاقطن، وفی أعلاھا رسم بالحریر الأحمر، فیه مکتوب: "إن أول بیت وصنع للناس للذی ببکة" الایة (١٥) واسم الإمام الناصر لدین اللّٰہ (الخلیفة العباسی) وسعته قدر ثلاث اذرع یطیف بھا کلھا، قد شکل فی ھذہ الستورمن الصنعة الغریبة التی تبصرھا أشکالُ محاریب رائقة ورسوم مقروءة.....

وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة و ثلاثون ستراً، وله خمسة مضاوئ (١٦) وعلیھازجاج عراقی بدایع النقش، أحدھا فی وسط السقف، ومع کل رکن مضوأ، وبین الأعمدة أکواس من الفضة،عددھا ثلاث عشرة، وإحداھامن ذھب.....

وأوّل مایلقی الداخل من الباب عن یساره الرکن الذی خارجه الحجر الأسود، وفیه صندوقان فیهما مصاحف، وقد علاهما فی الرکن بوبیان من فضة، کأنهما طاقان ملصقان بزاویة الرکن، وبینهما وبین الأرض أزید من قامة. (۱۷)

وفی الرکن العراقی باب یسمی باب الرحمة، یصعد منه إلی سطح البیت المکرم، وقدقام له قَبْو، فهو متصل بأعلی سطح البیت، داخله الأدراج، وفی أوله البیت المحتوی علی المقام الکریم، هومقام ابراهیم صلی اللّٰه علی نبینا وعلیه، وهو حجر مغشی بالفضة، وارتفاعه مقدار ثلاثه أشبار، وسعته مقدار شبرین، وأعلاه أوسع من أسفله.....

وداخل الحجر (ماحواه الحطیم المدار بالکعبة من جهة الشمال) بلاط واسع ینعطف علیه الحجر کأنه ثلثا دائرة، وهو مفروش بالرکام المجزع المقطّع فی دور الکف إلی دور الدینار، إلی مافوق ذلك، ثم الصق بانتظام بدیع وتألیف معجز الصنعة، غریب الإتقان، رائع الترصیع والتحزیع، رائع الترکیب والرصف، یبصر الناظرفیه من التعاریج والتقاطیع والخواتم والأشکال الشطرنجیة وسواها علی اختلاف أنواعها وصفا تها مایفیدبصره حسنا، فکأنه یحیله فی أزهار مفروشة مختلفات الألوان، إلی محاریب قدانعطف علیها الرخام. انعطاف القسی، وداخلهاهذه الأشکال الموصوفة والصنائع المذکورة، وبأزائهارخامتان متصلتان بجدار الحجر، أحدثَ الصانُع فیهما من التوریق الرقیق والتشجیر والتقضیب (۱۸) مالا یحدثه الصّنعُ الیدین (۱۹) فی الکاغذ قطعاً بالحلمین (۲۰) فمرآهما عجیب.....(۲۱)

والمیزاب فی أعلی الصفح الذی یلی الحجر المذکور وهومن صفر مذهب قدخرج إلی الحجر بمقدار أربع أذرع، وسعته مقدار شبر، وهذا الموضع

تحت الميزاب' هو أيضا مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى.....(۲۲)

وقبة بئر زمزم تقابل الركن'ومنهاإليه أربع و عشرون خطوة' وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض' و تنور البئرالمباركة فى وسطها ' وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذرعناه' وعمق الماء سبع قامات على مايذكر..... والحجرالأسود ملصق فى الركن الناظر إلى جهة المشرق' وسعته ثلثا شبر' وطوله شبر وعقد' وفيه أربع قطع ملصقة.....(۲۳)

والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات على ثلاث سوار من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد' ذرعها فى الطول أربع مئة ذراع وفى العرض ثلاث مئة ذراع وعدد سواريه الرخامية التى عددتها بنفسى أربع مئة وإحدى وسبعون سارية.....والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم.....(۲٤)

وهكذا يستمر ابن جبير فى وصف المسجد الحرام ويعرض علينا وصفاً دقيقاً للكعبة وكسوتها ولكلّ مابداخل المسجد من أجزاء' ويطيل فى وصف فتحه للناس والرسوم المتخذ لذلك' كمايطيل فيوصف المنبر و هيئة خطيبه ومايقول فى خطبة الجمعة من أدعية' ولايكاد يترك شيئا فى المسجد ولافى ظاهره وسطحه إلاويصفه وصفاً دقيقاًثم يصف مكة المكرمة وآثارها ومشاهد ها وجبا لها وأوديتها وأبوابها ومطاعمها وحماماتها واحتفال الناس فيها بليلة نصف شعبان وبرمضان ويوم العيد ويفيض فى وصف مناسك الحج ومشاعره وصف المشاهد الذى لاتفوته صغيرة ولاكبيرة'وهو يقسم ذلك على الأيام والليالى والساعات' إذيكتب دائمامايكتب فى صورة يوميات' وما يزال بمكة المكرمة حتى اليوم العشرين من ذى الحجة' فيعزم على زيارة المدينة المنورة وروضة الرسول صلى الله عليه وسلم ويصل إليها فى اليوم الثالث من المحرم فهويستهل حديثه عنها بوصف

زیارته للروضة المقدسة' یقول:

"وفی عشی ذلك الیوم دخلنا الحرم المقدس لزیارة الروضة المكرمة المطهرة' فوقفنا بإزائها مسلّمین' ولترب جنباتها المقدسة مستلمین' وصلینا بالروضة التی بین القبر المقدس والمنبر' واستلمنا أعواد المنبر القدیمة التی كانت موطئی الرسول' صلی اللّٰه علیه وسلم' والقطعة الباقیة من الجذع الذی حن إلیه (۲۵) صلی اللّٰه علیه وسلم' وهی ملصقة فی عمود قائم أمام الروضة الصغیرة التی بین القبروالمنبر' وعن یمینك إذا استقبلت القبلة فیها' ثم صلینا صلاة المغرب مع الجماعة' وكان من الاتفاق السعید أن وجدنا بعض فسحة فی تلك الحال لاشتغال الناس بإقامة مضاربهم' وترتیب رحالهم' فتمكنامن الغرض المقصود' وفزنا بالمشهد المحمود' وأدّینا حق السلام علی الصاحبین الضجیعین: صِدّیق الاسلام وفاروقه وانصرفنا إلی رحالنا مسرورین ولنعمة اللّٰه علیه شاكرین.....(۲۶)

وكذلك قد وصف ابن جبیر المسجد النبوی وصفاً طویلا ودقیقاً ومماقال فیه: (المسجد المبارك مستطیل' وتحفه من جهاته الأربع بلاطات مستدیرة به' ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصی' والجهة القبلیة منه لها خمسة بلاطات مستطیلة من غرب إلی شرق' والجهة الجوفیة لها أیضا خمسة بلاطات علی الصفة المذكورة' والجهة الشرقیةلها ثلاثة بلاطات' والجهة الغربیة لها أربعة بلاطات ' والروضة المقدسة (قبرالرسول وصاحبیه أبی بكر وعمر) مع آخر الجهة القبلیة ممایلی الشرق' وانتظمت من بلاطاته ممایلی الصحن فی السعة اثنین وینفت إلی البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار' ولهاخمسة أركان بخمس صفحات' وشكلها شكل عجیب' لایكاد یتأتی تصویره ولاتمثیله.....(۲۷)

وجمیع سعة الروضة المكرمة من جمیع جهاتها مئتا شبر واثنان وسبعون

شبراً، وهی مؤزرة بالرخام البدیع النحت، الرائع النعت، وینتهی الإزار منها إلی نحوالثلث أوأقل یسیراً، وعلیه من الجدار المکرم ثلث آخر قد علاه تضمیخ المسك والطیب بمقدار نصف شبر، مسودًّا، مشققاً، متراکماً مع طول الأزمنة والأیام، والذی یعلوه من الجدار شبابیك عود، متصلة بالسمك الأعلی، لأن أعلی الروضة المبارکة متصل بسمك المسجد، وإلی حیّز إزارا الرخام تنتهی الأستار، وهی لازوردیة اللون.....(۲۸)

وفی الصفحة القبلیة أمام وجه النبی صلی اللّٰه علیه وسلم مسمار فضة، هوأمام الوجه الکریم، فیقف الناس أمامه للسلام، وإلی قدمیه صلی اللّٰه علیه وسلم رأس أبی بکرالصدیق رضی اللّٰه عنه، ورأس عمر الفاروق ممایلی کتفی أبی بکر الصدیق رضی اللّٰه عنهما، فیقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الکریم، فیسلم، ثم ینصرف یمیناً إلی وجه أبی بکر، ثم إلی وجه عمر، وأمام هذه الصفحة المکرمة نحو العشرین قندیلا معلقة من الفضة، وفیها اثنان من ذهب.....

وعن یمین الروضة المکرمة المنبرالکریم، ومنه إلیها اثنتان وأربعون خطوة، وهو مرخم کله وارتفاعه نحو القامةأوأزید، وسعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجه ثمانیة، وله باب علی هیئة الشباك مقفل، یفتح یوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف، وبینه وبین الروضة الصغیرة، التی بین القبر الکریم والمنبر، وفیها جاء الأثر أنها روضة من ریاض الجنة، ثمانی خطوات، وفی هذه الروضة یتزاحم الناس للصلاة، وحق لهم ذلك.....

والمنبر مغشیّ بعود الآبنوس، ومقعد الرسول، صلی اللّٰه علیه، فیدخل الناس أیدیهم إلیه ویتمسحون به تبرکاً بلمس ذلك المقعد الکریم.....(۲۹)

وطول المسجد الکریم مئة خطوة وست وعشرون خطوة، وعدد سواریه

مئتان وتسعون' والبلاط المتصل بالقبلة تحف به مقصورة تكتنفه طولا من غرب إلى شرق' والمحراب فيها' وبينها وبين الروضة الكبيرة والقبرالمقدس محمل كبير مدهون' عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل عليه' هوأحدالمصاحف الأربعة التى وجه بها عثمان بن عفان رضى اللّٰه عنه إلى البلاد' وبإزاء المقصورة إلى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك.....

ويليهما فى البلاط الثانى لجهة الشرق أيضادفة مطبقة على وجه الأرض مقفلة' هى على سرداب يهبط إليه على أدراج تحت الأرض' يفضى إلى خارج المسجد' إلى دارأبى بكر الصديق رضى اللّٰه عنه' وهوكان طريق عائشة إليها' وبإزائها دارعمر بن الخطاب' ودارابنه عبدالله' رضى اللّٰه عنهما' ولاشك أن ذلك الموضع هو موضع الخوخة المفضية لدار أبى بكر التى أمرالنبى' صلى اللّٰه عليه وسلم' بإبقائها خاصة.....(۳۰)

وأمام الروضة المقدسة صندوق كبير هو للشمع والأنوار التى توقد أمام الروضة كل ليلة' وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود' هو موضع بيت بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك.....(۳۱)

والمؤذن الراتب فى المسجد أحد أولاد بلال' رضى اللّٰه عنه' وفى جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدثة جديدة' تعرف بقبة الزيت' هى مخزن لجميع آلات المسجد المبارك ومايحتاج إليه فيه' وبإزائها فى الصحن خمس عشرة نخلة' وعلى رأس المحراب' الذى فى جدارالقبلة داخل المقصورة' حجر مربع أصفر قدر شبر فى' ظاهر البريق والبصيص' يقال: إنه كان مرآة كسرى .

وللمسجد المبارك تسعة عشربابا' لم يبق منها مفتحا سوى أربعة فى

الغرب: منها اثنان' يعرف أحدهما بباب الرحمة' والثانى بباب الخشية؛ وفى الشرق اثنان يعرف أحدهمابباب جبريل' عليه السلام' والثانى بباب الرجاء ويقابل باب جبريل عليه السلام دارعثمان' رضى الله عنه' وهى التى استشهد بها..... وأمام الروضة المكرّمة شباك حديد مفتوح إلى روضته' تتنسّمُ منها رَوْحاً وريحانا' وفى القبلة باب صغير واحدمغلق' وفى الجوف أربعة مغلقة' وفى الغرب خمسة مغلقة أيضا' وفى الشرق خمسة أيضامغلقة' فكملت بالأربعة المفتوحة تسعة عشرباباً.....(۳۲)

فهكذايستمر ابن جبير فى وصف المسجد النبوى وماجاوره من الأماكن والمشاهد فى المدينة المنورة كمايصف مشاهد البقيع ومجالس الوعظ بالمسجد النبوى وسرعان مايودع المدينة المنورة' وكان قيامه فيها خمسة أيام' فى اليوم الثامن من شهر المحرم ميمها شطر العراق ومماقال فى وداعه للمدينة المنورة:

وفى عشيّ ذلك اليوم المبارك كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة' فياله وداعاً عجبا! ذهلت له النفوس ارتياعاً حتى طارت شعاعاً' واسُشرَت به النفوس التياعاً حتى ذابت انصداعاً! وما ظنك بموقف يناجى بالتوديع فيه سيدالأولين والآخرين' و خاتم النبيين' ورسول رب العالمين؟! إنهّ لموقف تنفطرله الأفئدة' وتطيش به الألباب الثابتة المتئدة' فواأسفاه وا أسفاه! كلّ يبوح لديه بأشواقه' ولايحدبُدًّا من فراقه' فما يستطيع إلى الصبر سبيلاً' ولاتسمع فى هول ذلك المقام إلارنّةً وعويلاً' وكل بلسان الحال ينشد: .....(۳۳)

محبّتى تقتضى مُقامى
وحالتى تقتضى الرحيلا

# الهوامش والحواشي

١. هوأحمدبن سليمان بن خلف الباجي الأندلسي'المتوفى سنة ٤٩٣ھ (ذيل كشف الظنون' ٣/٥٥٠)

٢. هو محمد بن عمر بن رشيد الفهرى' مجدالدين' السبتى المعروف بابن الرشيد المتوفى سنة ٧٢١ھ وسمى رحلته "الرحلة إلى مكة وطيبة" فى ست مجلدات (ذيل كشف الظنون ٣/٥٥٠)

٣. ورحلة ابن جبير هذه كتاب نفيس فى بابه' لاغنى عنه للمؤرخين والجغرافيين' وكل من أراد الإطلاع على أحوال تلك الحقبة'وقداهتم به المستشرقون' فترجم القسم المختص منه بصقلية إلى الفرنسية وطبع سنة ١٨٤٦م وطبع كله لأول مرّة فى ليدن سنة ١٨٥٢م مع مقدمة المستشرق وليم رايت' واعيد طبعه هنالک أيضا فى سنة ١٩٠٨ وفى صدره ترجمة لمؤلّفه وكذلک طبع بدارصادر فى بيروت سنة ١٣٧٩ھ/١٩٥٩م وقدقام بترجمته إلى اللغة الأردية الشيخ أحمد على خان شوق وسماه: "سفرنامه ابن جبير" وطبع بمدينة رام بوربالهند فى سنة ١٩٠٠م (راجع: دائرة المعارف الإسلامية الأردية ١/٤٦٠منشورات جامعة بنجاب بلاهور باكستان' ومعجم المطبوعات العربية والمعربة' لسركيس ١/٦٢.)

٤. راجع لترجمته: الاحاطة فى أخبار غرناطة' ٢/١٦٨' ابن الخطيب' مصر' ١٣١٩ھ ونفح الطيب للمقرى ١/٥١٥ طبعة دوزى' وشذرات الذهب لابن العماد ٥٠/٦٠ ودائرة المعارف الإسلامية الأردية

۱/٤٦٠، منشورات جامعة بنجاب بلاهور: والأعلام للزركلى ۳/۸٥.

٥. مقدمة رحلة ابن جبير (ص ٥) دارصادر، بيروت ۱۹٥۹م ودائرة المعارف الإسلامية الأردية، ۱/٤٦٠.

٦. الاحاطة فى أخبار غرناطة، ۲/۱٦۸.

۷. الإحاطة فى أخبار غرناطة، ۲/۱٦۹ والأعلام ۳/۸٥ودائرة المعارف الإسلامية الأردية ۱/٤٦٠.

۸. رحلة ابن جبير (صفحات: ۱٦، ۲۷، ۳۰، ۳۱) وفى مواضع كثيرة (طبعة دارصادر بيروت، ۱۹٥۹م)

۹. نفس المصدر (صفحات: ۱۸.۷)

۱۰. ص: ۳۱.۱۹

۱۱. ص: ٥---٤

۱۲. ص: ٥٥

۱۳. ص: ٥۳

۱٤. ص: ٥۹،٦۰

۱٥. سورة آل عمران، الآية: ۹٦

۱٦. المضاوئ: مواضع اللإضاء ة

۱۷. رحلة ابن جبير (ص :٦۱)

۱۸. التوريق: نحت صور أوراق الأشجار، والتشجير: نحت صور الأشجار، والتقضيب: نحت صور القضبان.

۱۹. الَصّنّعُ اليدين: الماهرالحاذق فى العمل بها

۲۰. الجَلَمان: المقص

۲۱. رحلة ابن جبير (ص: ٦٤)

۲۲. ص: ٦٥

۲۳. ص: ٦٥، ٦٦

۲۴. ص: ٦٧، ٦٨

۲۵. روية حنين الجذع قدوردت فى صحيح البخارى (كتاب المناقب: باب علامات النبوة، وكتاب الجمعة: باب الخطبة على المنبر، وكتاب الصلاة: باب الاستعانة بالنجار والصاع فى أعواد المنبر) وسنن الدارمى (باب ماأكرم الله النبى بحنين الجذع)

۲۶. رحلة ابن جبير (ص: ١٦٨، ١٦٨)

۲۷. ص: ١٦٨

۲۸. ص: ١٦٩

۲۹. ص: ١٧٠

۳۰. رواية خوخة ابى بكر الصديق رضى الله عنه وردت فى صحيح البخارى (كتاب المناقب: باب قول النبى: سدواالأبواب إلاباب أبى بكر) وصحيح مسلم (كتاب الفضائل: باب فضائل أبى بكر الصديق رضى الله عنه)

۳۱. رحلة ابن جبير (ص: ١٧١)

۳۲. ص: ١٧٢، ١٧٣

۳۳. ص: ١٨٠

☆☆☆☆☆

# حرمین شریفین کے سفر ناموں کا ابتدائی دور اور عربی سفر نامے

دنیاے اسلام کا پہلا سفر نامہ حرمین : جدید تحدیات کے تناظر میں

ڈاکٹر محمد طفیل ہاشمی (اسلام آباد)

عربی زبان وادب میں حرمین شریفین کے سفر ناموں کی روایت اور اس کا ارتقاء

ڈاکٹر محمود الحسن عارف (لاہور)

جذب القلوب (شیخ عبدالحق محدث دہلویؒ) اور سفر نامۂ حجاز

ڈاکٹر محمد اسحاق قریشی (فیصل آباد)

شاہ ولی اللہ کے سفر نامہ حج: فیوض الحرمین پر ایک نظر

ڈاکٹر محمد امین (لاہور)

"رحلة الصديق الى البيت العتيق" : ایک عربی سفر نامہ حج

پروفیسر عبدالباری (علیگڑھ)

نواب صدیق حسن خان اور ان کا سفر نامہ حج : رحلة الصديق الى البيت العتيق

پروفیسر محمد اجتباء ندوی (لکھنؤ)